

الحلقة (٥)

لازلنا بفضل الله عز وجل نعيش مع هذه السورة الكريمة المدنية، وهي أعظم وأطول سورة في كتاب الله عز وجل ألا وهي سورة البقرة، ولازلنا في الحلقة الخامسة التي مبدؤها قول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٠)

هذه الآية الكريمة جاءت بعد آية كما ذكرنا قبلاً في الحلقة الرابعة جاءت عقب نهي، أو إن شئت قل وزن، فالآيات كلها وهي آيات أحكام تتحدث عن أحكام لها علاقة بالمسلم من حيث أنه فرد، أو بالمجتمع لأنه في النهاية خلاصة الأفراد.

قبل هذه الآية تذييل الآية آية ذكر الخمر وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩) في الدنيا والآخرة

في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ في هذه الآية حقيقة قراءات يجب ذكرها، والقراءات هي: أولاً قراءة أبي عمرو البصري رحمة الله تعالى وهو لغوي ومقرئ قرأ قوله تعالى: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ قرأها ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ توجيه هذه القراءة أنه مرفوع بتقدير المبتدأ على أن: {مَاذَا يُنْفِقُونَ} مبتدأ وخبر، وقرأ الباقين ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ بالنصب وتوجيهها على معنى أن (ما) و (ذا) شيء واحد على معنى قل ينفقون العفو، هاتان قراءتان قرئ بها قوله تعالى ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾.

◀ **سبب نزول هذه الآية:** ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ

تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩) في الدنيا والآخرة وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٠) فقد روى أبو داود والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما لما أنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه عن طعام اليتيم وشرابه عن شرابه، فجعل يفضل من طعامه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم وأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه، أي أن المسلمين تخرجوا من خلط أطعمة وأشربة الأيتام بأطعمتهم وأشربتهم هم، فعندما تخرجوا ذهبوا كعادتهم وهم الوقافون عند كتاب الله عز وجل وهم الحريصون على طاعة الله عز وجل ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم متبينين ومستفتين، فأنزل الله عز وجل الآية من لا بأس من الخلط الذي يراد به نفع اليتيم في المحصلة.

❁ مفردات الآيات:

﴿ العفو في قوله تعالى ﴿ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ ﴾

أصل العفو القصد لتناول الشيء، يقال: عفا واعتفاه إذا قصده متناولاً ما عنده، ومنه عفت الريح التراب أي: قصدها متناولة آثارها، والعفو: التجاوز، إذاً هذه المادة مادة (العفو) تدور على التجاوز، وبهذا الاعتبار أن الله عز وجل عفو غفور فإنه يتجاوز سبحانه وتعالى عن ذنوب عبادة.

﴿ قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ ﴾ العنت المشقة والهلاك والشدة والخرج، أصله من عنت

الدابة تعنت عنتاً: إذا حدث في قوائمه كسر بعد جبر، وهذا المعنى اللغوي مرعي في الآية ﴿لَأَعْتَبْتَكُمْ﴾ إذ تأتي بمعنى لشق عليكم ولضيّق عليكم ولأوقعكم في الحرج، ولكنه سبحانه وتعالى رحمة منه وفضلاً رفع عن هذه الأمة الحرج والمشقة كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ في أي شيء، سواء في العبادات أو المعاملات أم إلى آخره كل ذلك رحمة منه وفضلاً وله الحمد والثناء.

❁ الإعراب في الآيات:

﴿ في قوله تعالى: ﴿ فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ﴾: إخوانكم خبر مبتدأ محذوف تقديره (فهم إخوانكم)، ومعنى الآية أنفقوا أيها المسلمون السائلون عما فُضِّلَ عن حوائجكم ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة، وهذا موجود باستفاضة في الكتاب والسنة وأيضاً موجود بما أودع الله عز وجل من أسباب كونية قدرية في نفس البشرية، حيث أن الإنسان في الأغلب الأعم يشح في الخير، ولعل التطوع جزء من الخير فالإنسان بطبيعته كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَثُورًا﴾ وصح الخبر عنه صلى الله عليه وسلم: (لو كان لابن آدم واد من تراب لا يبتغي أن يكون له واديان) إلى آخر الحديث الصحيح.

والله يبين آياته لتفكروا في أمر دنياكم وأخرتكم، ويسألك أيها النبي صلى الله عليه وسلم أولئك المؤمنون عن القيام بأمر اليتامى، أو التصرف في أموالهم أو عن أمرهم، وكيف يكونون معهم، فقل مداخلتهم مداخلة يترتب عليها إصلاحهم أو إصلاح أموالهم بالتنمية والحفظ خير من مجانبتهم، إذ هم إخوانكم في الدين، ولو شاء الله عز وجل لضيق عليكم في تشريع، ولكنه سبحانه وتعالى لم يفعل رافة ورحمة بكم وهو عزيز حكيم.

﴿ ونلاحظ أن الآية تدل دلالة واضحة على أن الإنسان كما يقال في الأعصر الأخيرة يجب عليه أن يكون إيجابياً، ولا سيما مع الضعفاء كالأيتام، فإن اليتيم بحاجة إلى الحنو من خلال الكلمة الطيبة، من خلال الإرشاد الذي يدلّه على منفعة عاجلة أو آجلة له، بحاجة إلى من ينصحه، فققد الوالد أو الوالدة يجعل هذا الغلام الصغير لا يدرك ما فيه خير أمره، فلذا يجب على من كان في مثل هذا الوضع

أن يتعامل مع اليتامى بإيجابية، ويا حبذا أن تنتقل هذه الإيجابية أيضاً إلى المجتمع كافة ﴿فَاِخْوَانُكُمْ﴾ والمجتمع الإسلامي كله واحد.

﴿الآية الأخرى هي قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

إذاً لاحظوا أن الآيات كلها ترشد وترغب وترهب في النهاية في أمور اجتماعية، سواء كان الأمر متعلقاً بالإنفاق السابق ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ ثم أيضاً مسألة الجهاد، ثم مسألة الخمر، ثم أيضاً مسألة كيفية التعامل والتعاطي مع الأيتام، كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن هذه السورة العظيمة تُعنى بإبراز الجوانب التي فيها معاملة الناس بعضهم لبعض، ونحن هنا نتذكر على أنها من آخر القرآن نزولاً، وعلى أنها نزلت في المدينة النبوية المثالية الفاضلة، فإن كان ذلك كذلك فلا يكاد يمر بنا آية أو آيتان إلا ونجد أن هناك توجيهاً ما للفرد، لكي يكون إيجابياً كما قلنا مع المجتمع، أو للمجتمع الذي هو في النهاية محصل للأفراد، كل ذلك نجده ونعايشه في هذه السورة الكريمة.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ إذاً المسألة في نظر الشريعة ليست مسألة مظاهر، إنما المسألة مسألة جواهر، فإن كان هذا الإنسان المسلم المؤمن يريد الارتباط بامرأة وكانت وثنية فعلى الصحيح لا تحل له ولا يجوز له الاقتران بها، وأما إذا كانت كتابية ففضلاً منه ورحمة تجوز له ويجوز له أن ينكحها وأن يتزوج بها، ولعلنا سنقف على شيء مما قاله فقهاؤنا رحمهم الله تعالى، فإذاً إذا كانت المرأة وثنية كأن لا يكون لها دين البتة أو أن يكون لها دين لكن هذا الدين غير معترف به؛ فإذاً أيها المسلم أيها المؤمن لا يجوز لك أن تقترن بهذه المرأة، إلا في حالات قليلة كأن يكون هذا الزوج متضلعاً في العلوم الشرعية حتى يستطيع أن يدعوها لتسلم، فهذا قال به بعضهم.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ بأفعالهم، بتصرفاتهم، بإعطائهم المثل السيئة يدعون إلى النار ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿سبب نزول الآيات:﴾

هذه الآية في واقع الأمر قيل في سبب نزولها سببان، ونحن هنا نقتصر على السبب الذي ارتضاه جمهور المفسرين، والسبب الآخر حقيقة هو سبب نزول آية أخرى في سورة النور، فلن نتعرض إذاً لهذا، ولا سيما أن المحققين كابن حجر رحمه الله تعالى رأى أن سبب نزول الآية ما ذكره الآن.

روي أنها نزلت في (مرثد الغنوي) كانت له خلية مشركة في الجاهلية يقال لها: (عناق)، إذاً مرثد ابن أبي مرثد، وفي بعض الروايات يقال كنان، اختلف في اسمه، كان له قبل نزول الشريعة خلية اسمها عناق، من يرجع إلى التاريخ يدرسه ويتأكد، فقبل الإسلام كانت هناك رايات تعقد وتوضع على بعض بيوت البغايا لمن أراد الزنا عياداً بالله فتلك هي الدور، فمرثد بعد الإسلام رأى عناق في مكة، فلما أسلم قالت له تزوج بي، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (أيحل لي أن أتزوجها؟) فأنزل الله تعالى هذه الآية وحرم نكاح المشركات.

وقيل في سبب نزولها غير ذلك الذي ذكرناه قبلاً من أن الآية التي في سورة النور هي مراده، وسبب النزول هذا هو الذي نختصره عليه.

❁ مفردات الآيات:

﴿قوله تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾﴾: النكاح أصله من تناكحت الأشجار أي تداخلت أغصانها بعضها في بعض، فالنكاح لغة المداخلة والاشتباك، ويطلق على العقد مستعاراً في الوقت، ويطلق على الجماع وعلى الزوج تجوزاً واتساعاً، إذاً أصل مادة (نَكَحَ) مادة تدل على ما ذكرناه.

❁ الأحكام التي تؤخذ من الآية:

ما حكم الزواج من المشركات؟ يقال هنا إجابة على هذا: اختلف العلماء في تأويل هذه الآية ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ فقالت طائفة حرم الله عز وجل نكاح المشركات في هذه الآية ثم نسخ من هذه الجملة نساء أهل الكتاب، فأحلهن في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ فإذاً الأصل أن الآية عامة في المشركات كلهن، لكن استثني الله عز وجل من هذا الحظر الزوج بالكتابيات، لأنهن في الأصل لهن دين ولهن كتاب، نعم الإسلام نسخ تلك الشرائع السابقة كلها وقال الله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ فاستقراء تاريخية يسيرة تدلنا على أنه لا استنكار ولا تعجب من أن ينسخ الإسلام الأديان السابقة، فنحن لو ألقينا نظرة على ما كان عليه الأمر قبلاً، لوجدنا أن النصرانية قبل الإسلام كأنها نسخت اليهودية، هذا على رأي من أن النصرانية جاءت بشريعة جديدة، أما الرأي القائل بأن النصرانية تنمة أو تفسير أو تصحيح لمسار اليهودية من خلال التحريفات التي وقعت، فإذاً أياً ما كان الأمر فلا ينكر ولا يستنكر أن ينسخ الإسلام وهو المتأخر عن الشرائع السابقة، فإنه عقلاً ومنطقاً وواقعاً ينسخ ما سبقه من الشرائع.

وننبّه على أن الشرائع في الأصل شيء واحد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ نعم التشريعات تختلف أي الفروع تختلف ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ إذا الأصل واحد، والفروع تتشعب، ولا إشكال في هذا.

﴿إذا هذا القول الذي عليه طائفة من العلماء على أن الله عز وجل حرم نكاح المشركات، واستثنى من التحريم نكاح الكتابيات والآية صريحة في هذا ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾. وعلى هذا جمع من العلماء، وروي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنه، وبه قال مالك بن أنس، وسفيان الثوري، والأوزاعي، هذا الرأي أو هذا القول قول جماعة من أهل العلم.

﴿القول الثاني: قال قتادة وسعيد بن جبير لفظ الآية العموم في كل كفرة، والمراد بها الخصوص في الكتابيات، وبينت الخصوص آية المائة، ولم يتناول العموم قط الكتابيات، وهذا أحد قولي الشافعي رحمه الله تعالى، وعلى هذا القول كأن قتادة وسعيداً يقولان إن الآية على بابها على العموم، وهي تتناول الكافرات كلهن، وآية المائة بينت هذا الخصوص لا إشكال، لكن الآية على حكمها فالكوافر كلهن محرمات، وعلى القول الأول يتناولهن العموم، ثم نسخت آية المائة بعض العموم، وهذا مذهب مالك رحمه الله ذكره ابن حبيب.